أسامة بن زيد



إعداد
حلمي علي شعبان
٤٠
أعمدة
Bibliotheca Alexandrina
0015183
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

سلسلة أعمدة الإسلام

٤٠

أسامة بن زيد

إعداد
حلمي علي شعبان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

هذه السلسلة

بسم الله الرحمن الرحيم

«أعمدة الإسلام» سلسلة دينية تاريخية ثقافية. فيها أتناول سير شخصيات عظيمة في التاريخ الإسلامي ساهمت في توطيد دعائم الدين الحنيف وكان لها فضل في شرف السبق إلى الإسلام والاشتراك في ميادين الجهاد.

وهي مكتوبة بأسلوب قصصي مشوّق ومسندة بأحداث تاريخية مستقاة من مصادر أساسية في تكوين التاريخ الإسلامي.

ومهما كتب حول سير أولئك العظام، فإن كل جيل طالع من المسلمين بحاجة إلى معرفة تاريخه وكيفية انطلاق دينه في تلك السيرة المباركة التي قادها أشرف الخلق وسيد المرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

أما سيرة رسول الله ﷺ. فقد أُدرجت ضمن سلسلة «الأنبياء».

أسأل الله تعالى التوفيق.

وآمل أن تكون سيرة أبطالنا العظام خير معين لنا في حياتنا وحياة أولادنا وأحفادنا. فنكون خير خلف لخير سلف.

حلمي شعبان

اسامة بن زيد

١ ـ اسمه

هو أُسامة بنُ زيدِ بن حارثة بن شراحيل بن كعبِ بن عبدِ العزى بن زيدِ بنُ امرىء القيس بن عامرِ ابن النعمانِ بن عامِر بن عبد ودّ بنُ عوفِ بن كِنانَةَ بن بكرِ ابن عوفِ بن عذرة بن زيدِ اللات بنِ رفيدة بن ثورِ بن كلبِ بنُ وبرة الكلبي.

وكنيتُه: أبو محمد

٢ ـ نشأة مسلمة

وُلِدَ أُسامة في بيتٍ باركَتْهُ السماءُ وقَـدَّسَهُ أهـلُ الأرضِ وشَعَّتْ في جنباتِه أَنْوارُ الهدايةِ وضياءُ الإيمـانِ باللَّهِ الواحدِ الأحد.

فقـد وُلدَ في بيت رسـولِ اللَّه إلى البشر كـافّةً، سيِّدِ الرُّسُلِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ.

أبـوهُ زيدُ بنُ حـارثة مـولىَ رسولِ اللَّه ﷺ وابنُـه بالتَّبنّي قبل أَنْ تنزلَ آياتُ اللَّهِ المُحْكمات وتُلغِيَ التَّبَنِّي وترد كلَّ امرىءٍ إلى أَبيهِ. وقد ظَلَّ فترةً طويلةً يُـدعى: زيد بن محمد.

أمـا أُمُّه فهيَ «بـركةُ» الحبشيّـة المكَنَّاة أُم أيمن. وهي كانَتْ مولاةً لآمنـة بنتِ وهب أُمّ رسولِ اللَّهِ ﷺ. فظَلَّتْ في بيتِه بعدَ وفاتِها تَحْضُنُه وتُرَبيه مثـلَ أُمِّه حتى قَالَ فيها عليهِ الصلاةُ والسلام:

ـ «هي أُمي بعدَ أُمي وبَقِيَّةُ أَهْلِ بَيْتي».

فكانَتْ من الرسولِ الكريمِ موضِعَ الحبِّ الكبيرِ

والاحترامِ المُطْلَقِ والحنانِ الغامِرِ[1].

وولادَةُ أُسامة أَدْخلَتْ البهجَة والسرورَ إلى قلبِ النبيِّ الكريم.

ذلكَ أَنَّه في السنةِ السابعةِ بعد الوحي قبلَ الهجرةِ إلى المدينةِ المنوَّرة كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في أَحَدِ شعابِ مكَّةَ المكرمة يُفَكِّرُ في رسالتِه وفي عظيمِ الأَذى والاضْطهادِ اللذَيْن يَلْقاهُما من قريش، وقد أَحْزَنَ ذلك قَلْبَه وعصَرَ فؤادَه.

وأَطَلَّ عليهِ رجلٌ صالحٌ يَحْمِلُ إِلَيْهِ النبأَ السَّعيد:

- «البشرى... البشرى...

لقد رُزِقَتْ أُمُّ أَيْمنَ بغلام».

وتهلَّلَ وجْهُ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ونَسِيَ كلَّ هُمومِهِ وأَحْزانِه وهو يَتَبَلَّغُ وفودَ مخلوقٍ من صُلْبِ مولاه الذي أَحَبَّه كابنِه... ومن بطنِ امرأةٍ كانَتْ له أُماً بعد أُمِّه. فشكرَ اللَّهُ وحَمدهُ ودَعَا أَنْ يكونَ الطِّفْلُ من أَهْلِ

(١) الغامر: المغطي.

الإسلامِ وأَبْطَالِ الجهادِ ورجالِ الإِيمان.

وشـارَكَ المُسْلمونَ نبِيَّهم فـرْحَتَـهُ وهلَّلوا لـولادةِ ذلـكَ الـطفـلِ المبـارك الـذي وُلِـدَ في بيتِ رسـولِ اللَّهِ ﷺ وتَرَبّى في حِضْنِه وعاشَ في كَنَفِه[1].

ونشـأَ أُسـامـة نشـأَةً أَسـاسُهـا التُّقى وخَشْيَـة اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، وطريقُها الصِّدق والإِخلاص لـرسالـةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. فاكتسَبَ كلَّ المزايا الحميدة وسلك في حياتِه طريقَ التَّوحيدِ والإِيمان.

فالعباداتُ كـانَ يُمارِسُهـا منذُ بـدايةِ وَعْيِـه مقلِّداً رسولَ اللَّهِ ﷺ ووالدَه والمسلمين.

وفي الحياة تعلَّم كلَّ فنونِ الحـربِ والقتالِ كأَنَّه يُحَضِّـرُ نَفْسَهُ ليومٍ موعودٍ.. بل أيامٍ موعودة.

٣ ـ شخصيَّتُه

كـانَ أُسـامـة شخصيَّـةً مميَّـزةً بين الشخصيـاتِ الإِسلاميّة.

---

(١) كَنفه: جواره وحمايته.

فَشَكْلُه الخارجيُّ أَخَذَهْ عن أُمِّه «بركة» الحبشيّة. فهو أَسودُ اللون، أفْطَسُ الأنفِ، أَجْعَدُ الشعرِ. قويُّ الجسمِ، متينُ التركيب، مفتولُ العَضلاتِ، متوسِّطُ الطولِ، ضَخْمُ الجثة.

أَما صفاتُه الإِنسانيَة فقد جمعَتْ كلَّ المزايا الفاضلة التي يتوفَّرُ وجودها في الإِنسان المسْلِم.

فقد كانَ عفيفَ النفسِ وَرِعَ[١] السلوكِ، طاهرَ القلبِ والجسد، مستقيمَ الرأيّ، مخلصاً لدينِ اللّهِ عزَّ وجلّ، مجاهِداً في سبيلِ اللّه حتى الفداءِ والتضحيةِ بالنفس، متمنّياً الشهادة.

وإِضافةً إلى كلِّ تلك الصفاتِ الحميدة والأَخلاقِ الفاضلة فقد تميَّز بذكاءٍ كبيرٍ، وحُسْنِ فَهْمٍ وإِدراكٍ للأمورِ والمواقِف، ومقدرة عالية على التخطيطِ واتخاذِ القرارِ المناسبِ في الموقفِ المناسب. وبرزَتْ مواهبُه القياديةُ من خلالِ آرائِهِ الحكيمة، وحضورِ شخصيَّته القويّةِ التي تبهرُ[٢] الحاضرين.

---

(١) ورع: زاهد.

(٢) تبهر: تدهش وتعجب.

٤ ـ الحِبّ ابن الحِبّ

كانَ أُسامةُ بنُ زيدٍ قُرَّةَ عينِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وحبِّهِ وحنانِه.

فقد رأى فيهِ فتىً قويّاً ومؤمِناً صادقاً وشابّاً مستقيماً، فأَحبَّهُ حباً كبيراً. كما أَحبَّ أباهُ زيدَ بن حارثة حباً أكبرَ عندما رَفَضَ أَنْ يلتَحِقَ بأَهْلِهِ الذين فقَدوهُ وفضَّلَ عليهِم خدمةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

فأَرادَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أَنْ يُكْرِمَ زيداً ويُشْعِرَ المسلمينَ بمنزلتِهِ في قلبِهِ فقالَ في جمعٍ من أَصْحابِه:

ـ «أُشْهِدُكُم أَنَّ زيداً هذا ابني. يَرِثُني وأَرِثُه».

وذلِكَ قبلَ أَنْ تَنْزِلَ الآيةُ الكريمة:

﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند اللّه فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾[1].

(١) الآية ٥ من سورة الأحزاب.

وبذلك أُلْغِيَ التَّبنِّي في الإسلام.

وتواصَلَ حبُّ الأبِ زيدٍ في حبِّ الابنِ أُسامة في نفسِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. فرعاهُ طفلاً صغيراً، وربّاه فَتى صالحاً، وأَنشأهُ شاباً قوياً.

ففي طفولَتِهِ داعبَهُ ولاعبَهُ كما يلاعِبُ ويُداعِبُ سبطَهُ[1] الحسَنَ بنَ علي ابْنَ ابْنَتِهِ فاطمة الزهراء. ولم يُفَرِّقْ في حبِّه ومعامَلَتِهِ بينَ الاثْنَيْن. فكانا كِلاهُما عزيزَيْنِ على قَلْبِهِ، قريبَيْنِ إلى فؤادِهِ، بهيجَيْن على روحِه.

فالحسَنُ وأُسامة من عمْرٍ واحدٍ تقريباً.. وهُما في الشَّكل الخارجي مُخْتَلِفانِ مُتَناقِضان..

فالحسَنُ أَبْيَضُ البشرة... أَزْهَرُ الجلدِ.. مُشْرِقُ الوجه... رائِعُ الحُسْن.. أَشْبَهُ خَلْقِ اللَّه بِجَدِّهِ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

وأُسامةُ أَسودُ اللون. أَفْطَسُ الأَنف. أَجعد الشعر...

(١) سبطه: ابن ابنته.

ولكنَّ الإسْلام لا يُميِّزُ بَيْنَ البَشَرِ بسببِ اختلافِ اللونِ وبياضِ البشرةِ أو سوادِها لأَنَّه يُساوي بينَ الإنسانِ والإنسان.

فكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يأخُذُ سِبْطَهُ الحسنَ فَيَضَعُه على أَحدِ فخذَيْهِ ثم يأَخُذُ أُسامةَ فيضعهُ على الفخذِ الآخر... يلاعِبُهما ويضُمُهما معاً إلى صدْرِه ويقول:

ـ «اللهُمَّ إنّي أُحِبُّهما... فأَحِبَّهما»

وعندَما كانَ أُسامةُ في سنيه الأولى وشَقَاوَةُ الأولادِ في نَفْسِه، أَخذَ يركُضُ يوماً في بيتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. فَعثَرَتْ قدَمُهُ ووقَعَ على عتبَةِ البابِ حيثُ جُرِحَتْ جَبْهَتُه. فطلبَ النبيُّ الكريمُ من السيّدة عائشة أُمِّ المؤمنين رضوانُ اللَّهِ عليها، أَنْ تُسْعِفَهُ وتزيلَ الدَّمَ عن وَجْهِهِ. لكنَّها تباطأَتْ في ذلك. فما كانَ منَ الرَّسولِ عليهِ السلام إلاّ أنْ أخذَ أُسامةَ في حِضْنِهِ وجعَلَ يمصُّ الدَّمَ عن وَجْهِهِ ويَمُجُّهُ(١) وهوَ يواسيهِ بكلماتٍ حنونةٍ وَيُطَيِّبُ خاطِرَهُ بعباراتٍ لطيفة.

---

(١) يمجه: يلفظه.

وفي ذلكَ تقولُ السيّدة عائشة أُمُّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عنها:

ـ عثرَ أُسامةُ بأسكفةِ البابِ فشُجَّ في وَجْهِهِ. فقالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ:

ـ أميطي عنه(١).

فكأَني تقذرته(٢). فجعلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يمصُّهُ ثم يمجُّهُ وقال:

ـ لو كانَ أُسامةُ جارِية.. لكسَوْتُه وَحَلَّيْتُهُ حتى يَنْفُقَ (٣).

وكانَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يَصْطَحِبُهُ معَهُ في كثيرٍ من زياراتِه.

وقد رُوِيَ أَنَّهُ رَكِبَ ذاتَ يومٍ بغلتَهُ وعلَيْها قطيفةٌ(٤) ثمينة، وأَرْكَبَ خلْفَهُ أُسامةَ بنَ زيدٍ وسارَ نَحْوَ

---

(١) اميطي عنه: أزيلي عنه.
(٢) تقذرته: وجدته قذراً.
(٣) ينفقه: يشفى.
(٤) قطيفة: غطاء من قماش فاخر.

منزلِ عُبادَةَ بنِ الصامت ليعودَهُ أَثناءَ مَرَضِهِ وذلِكَ قبلَ غزوةِ بدر.

وبلغَ من حبِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ لأُسامة أَنْ خَصَّهُ باللّباسِ الفاخرِ والمَتَاعِ الثَّمين.

ذلِكَ أَنَّ حَكيمَ بنَ حزام أَحَدَ أَشرافِ قريش أَهْدى رسولَ اللَّه ﷺ عباءَةً ثمينةً كانَتْ «لابنِ ذي يَزن» أَحدِ ملوكِ اليمن، دَفع ثمنَهَا خمسينَ ديناراً ذهباً. وأَبى الرسولُ الكريمُ قبولَها منهُ لأَنَّ حكيماً كانَ في ذلِكَ الوقتِ مُشْرِكاً. وأَخَذَها مِنْهُ بِنَفْسِ الثَّمن ولَبِسَها مرةً واحدةً في حياتِهِ في يومِ جمعة، ثم خَلَعَها على أُسامةَ الذي كانَ يلبسُها أَمَامَ رفاقِه من شبانِ المهاجرينَ والأَنصار وهو أَشدُّ ما يكونُ فَرحاً بها وسُروراً.

وأَدْرَكَ الصحابةُ الأَجِلاّءُ والمسلمونَ الأَبرار مدى حبِّ النبيِّ عليهِ السلام لأُسامة فأَطْلقوا عليه لقَبَ:

«الحِبّ ابن الحِبّ».

٥ ـ جهادٌ مُبَكِّر

وتدرَّجَ أُسامةُ في سني حياتِه. وكان يَظهرُ

بوضوحٍ نموُّ جِسْمِهِ القويِّ ومتانَةَ تركيبِه.

وأَخـذَ يتعلَّمُ فنـونَ القتـالِ والتـدريبِ على رَمْي الـرمح والـطعن بالسيفِ واستعمـالِ القوسِ والنُّشـاب إضافةً إلى الفروسيّة والمبارزةِ، ورسـولُ اللَّهِ ﷺ يراقِبُهُ بعينِ الحبِّ، ويَرْعاهُ بنظراتِ العَطْفِ والحنان.

وجذبَهُ حبُّ الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ منـذُ صِغَرِهِ. فقد أَرادَ تقليـدَ المسلمينَ المجاهدينَ الأَبرار، والتَّمَثُّلَ بهم. فحاولَ دائمـاً أَنْ يكونَ بَيْنَهُمْ في ساحاتِ القتالِ يُدافِـعُ عن الدِّينِ الحنيفِ ويُشَكِّلُ مع بقيَّةِ إخوانِه درعاً متيناً يَحْمي العقيدةَ ويُثَبِّتُ مبـادِئَها وينشُـرُ تعاليمهـا في نفوسِ الناس.

ففي يومِ أُحُد، تَنادى أُسامةُ مع أَترابٍ[1] لَهُ وأَتَوْا رسولَ اللَّهِ ﷺ طالبِينَ إجازَتَهُمْ[2] للجهادِ في سبيلِ اللَّهِ والاشتراكِ بقتالِ الكفّار. إلّا أَنَّ الرسـولَ الكريمَ ردَّهُمْ بلطفٍ لصِغرِ سِنِّهِمْ وبارَكَ نِيَّتَهُم وإِخْلاصَهُمْ لدينِهِمْ.

وفي غزوةِ الخندقِ كانَ أُسامـةُ قد بلغَ الخـامسةَ

(١) اتراب: رفاق من نفس العمر.

(٢) اجازتهم: السماح لهم.

عشرَ من عمرِه، فتقدَّم من رسولِ اللَّهِ ﷺ وَطَلَبَ الإِذْنَ لَهُ للاشتراكِ بالجهادِ. فتأَمّلَهُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهِ بنظرةٍ حانيةٍ ورأى في عينَيْهِ رجاء رجاء وتوسُّلاً. فأَذنَ لَهُ وكانَتْ تلكَ فرحَتَهُ الكبرى وهو يَضَعُ سِلاحَهُ عليه ويَحْمِلُ سَيْفَهُ ويستعِدُّ للقتال.

أَمّا في يومِ حُنَيْن فقد ظهرَتْ بطولةُ أُسامة الحقيقية وفروسيَّتُه النادِرَةُ مع قلَّةٍ قليلةٍ من المسلمينَ الأَبرار.

فبعدَ العامِ الثامنِ لفتحِ مكّة، ساءَ بعضَ القبائل العربيَّة أَنْ يَنْتَصِرَ الإِسْلامُ ويسودَ مُعْظَمَ أَنحاءِ الجزيرةِ العربيّة. وكانَ على رأسِ تلكَ القبائل، هوازن وثقيف، واستطاعَ رجلٌ اسمُهُ مالكُ بنُ عوفٍ النصريّ أَنْ يَجْمَعَ هوازن تحتَ قيادَتِهِ ويترأَسَ عَلَيْها وعلى القبائلِ المتحالفةِ مَعَها من نصرٍ وجشم وسعدِ بنِ بكر وقليلٍ من قبيلةِ «بني هلال».

وأَخذَ مالكُ يُخطِّطُ للحربِ ولإِلْحاقِ الهزيمةِ برسولِ اللَّهِ ﷺ، وغزو مكة المكرمة.

ولجأَ إِلى خطَّةٍ جديدةٍ لم تكُنْ مألوفةً في حروبِ الجزيرةِ العربية.

فقَــد عَلِمَ بمسيــرةِ المسلمينَ والــطريقِ التي سَيَسْلُكُونَها. فجمَعَ مُقاتلِيهِ ووضَعَهُمْ على جانِبَـي وادي حنين، وهو الممرُّ الذي سيسلُكُه المسلمونَ. وكانَ ذلك كميناً غادراً.

وفي ساعاتِ الصُّبح... وفيما جيشُ المسلمينَ يسيـرُ حتى بلغَ ذلك الـوادي.. وادي حُنين.. انْقَضَّ عليهِم المشـركون من كـل جـانبٍ وأَمْعَنـوا فيهم قتـلاً وجرحاً.

فـاضْـطَرَب حـالُ المسلمينَ وحـاروا في أَمْـرِهِمْ وبدؤوا الفرارَ من أَرضِ المعـركةِ وهم يَنْشُـدون النجاةَ بأَنْفُسِهِمْ.

وانحازَ(١) رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى يمينِ الوادي ووقَفَ يرقُبُ انهزامَ المسلمينَ فقالَ يُخاطِبُهم:

«- أَيُّها الناس...

هلُمّوا إليَّ.. أَنا رسولُ اللّه..

أَنا محمدُ بنُ عبدِ اللَّه».

---

(١) انحاز: مال.

وثَبَتَ معــهُ في وَقْعَتِــه تلكَ نفــرٌ من المؤمنــينَ الصّــالحينَ المخلصينَ ثباتَ الأَبـطال، وكانَ أُسـامةُ بنُ زيدٍ بينَ أُولئِكَ الأَبطالِ وهم:

أَبو بكر الصديق، وعمر بن الخـطاب، وعليُّ بنُ أَبي طـالب، والعبـاسُ بنُ عبـد المـطلب عَمُّ رســولِ اللَّه ﷺ، وعمُّ الـرسـولِ أَبـو سفيـانَ الحـارث وابنُـه، والفضــلُ بنُ العباس، وربيعــةُ بنُ الحــارث، وأَيمن بنُ عبيد (الذي قُتِلَ يومَ ذاك) رَضِيَ اللَّهُ عنهُمْ أَجمعين.

وظلَّتْ سيوفُ الصحابةِ الكِرام الثّابتين مع رسولِ اللَّهِ ﷺ تصُـدُّ المشـركينَ وتَمْنَعُهُمْ منَ الاقتــرابِ منـهُ حتــى أَدْرَكَ المسـلمــونَ المنهـزمـون خـطأَ فِعْلِهِمْ فعادوا أَدْرَاجَهُمْ يَلْتَفّونَ حول رسول اللَّه ﷺ وهم أَشَدُّ ما يكونونَ حماسةً ونَدَماً وانْدِفاعاً.

وكتَبَ اللَّهُ النَّصْرَ للمسلمينَ بفضلِ ثبـاتِ أُولئِكَ الصحابةِ الأَجِلّاء وأُسامة من بَيْنِهم.

ولعلَّ أَكْثَرَ المعارِكِ أَثَراً في نفسِ أُسامة، كانَتْ تلكَ المعركة الكبرى التي خاضَها المسلمونَ في «مؤتة» بـقـيــادةِ والدِه زيدِ بنِ حارثة.

ففي تلكَ المعركة، كانَ عددُ جيشِ العدوِّ يَفوقُ عـددَ المسلمينَ بأضعـاف. ولقد أَبْلى المسلمـونَ بلاءً عظيماً.

وشاهَد أُسامةُ بعَينَيْـه مَصْرَعَ أَبيـهِ زيد والقـائدَيْن اللذَيْن خَلفَاهُ وهما: جعفرُ بنُ أَبي طالب، وعبدُ اللَّهِ بنُ رواحـة، قبل أَنْ يَتَسلَّمَ خـالدُ بنُ الـوليد إِمْـرَةَ الجيشِ ويُنْقِذَ جيشَ المسلمين.

وبالرُّغْمِ من استشهادِ والدِهِ أَمامَ عَينَيْهِ بَقِيَ أُسامة ذلـك المؤمن المخلص. فلَمْ تَضْعُفْ نَفْسُهُ ولم تـهــن روحُه، بل ازدادَ إيماناً وتصميماً على متابعةِ الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ حتى الاستشهاد.

٦ ـ الأميرُ الصغير

وتكـوَّنَتْ شخصيةُ أُسـامة القيـاديّة عبْـرَ ممارسـةِ القتال في ساحاتِ الجهاد. واكْتَسَبَ في تلكَ المعارك خبرةً حربيَّة عالية.

وأَرادَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَن يغزُوَ بـلادَ الروم ويَنْشُـرَ

الدعوةَ فيها. فأَمَر بتجهيزِ جيشٍ كبيرٍ مميّز. وجعل على رأسِ ذلِكَ الجيش أُسامةَ بن زيد الذي لم يَكُنْ قد تجاوزَ العشرينَ من عُمرِه. وجعلَ تحتَ إِمْرَتِهِ الصفوةَ المختارَة من الصَّحابة الأَجِلّاء، أَمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسعد بن أَبي وقاص وأَبي عبيدة وغيرهم وغيرهم.

ويبدو أَنَّ بَعْضَ الصحابةِ تمَلْمَلَ من تعيينِ أُسامة أَميراً على الجيش وأَعلنَ تذمُّرَهُ علَناً.

وبلغ ذلكَ مسامِعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ الذي ساءَهُ تذمُّرُ بعضِ المسلمينَ فقالَ يُخاطِبُهم:

ـ «إنْ تَطْعَنوا في إمارَتِهِ فقد طَعَنْتُم في إِمْرَةِ أَبيهِ من قبلِه...

وايْمُ اللَّه إنْ كانَ خليقاً بالإمارة، وإنْ كانَ لأَحَبَّ الناسِ إليَّ من بَعْدِه...

وإنّي لأَرْجو أَنْ يكونَ من صالحيكُم.. فاستوصوا بِهِ خيراً...».

وأثناءَ تجهيزِ الجيشِ مَرِضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مرضاً

شديداً. وقَبْلَ أَنْ يَلْفُظَ أَنفاسَهُ الأَخيرةَ الطاهرة قالَ وهوَ يُعاني سكراتِ الموت:

ـ «أَنْفِذوا جَيْشَ أُسامة...

أَنْفِذوا جيشَ أُسامة...».

وكانَ أُسامةُ في ذلكَ الوقت، في الجرفِ وهوَ مكانٌ خارج المدينةِ المنوَّرَة يعمَلُ على تجهيزِ جَيْشِهِ والإشْرَافِ على إعداده.

واختارَ المسلمونَ أَبا بكرٍ خليفةً عَلَيْهِم. ورأى بعضُ أَصحابِ الرأي تأَخيرَ بَعْثِ جيشِ أُسامة. فأَتَوْا عمرَ بنَ الخطابِ يَطْلبونَ إليهِ أَنْ يُكَلِّمَ أَبا بكرٍ في ذلكَ وأَنْ يُغَيِّرَ إمارةَ أُسامة ويُعَيِّنَ بدَلاً عنه واحداً أَكبرَ سِناً وَأَقْدَمَ إِسْلاماً.

وأَتى عمرُ مجلسَ أبي بكرٍ وتقدَّمَ منهُ وطلبَ إليهِ تأخيرَ بعْثِ جيشِ أُسامة. وفي حالِ الإصْرَارِ على بَعْثِهِ ليكُنْ على الجيشِ أمير آخَرَ وأَكبرُ سنّاً مِنْهُ.

وغَضِبَ أبو بكرٍ غضباً شديداً ووثَبَ نحوَ عمر بنِ الخطاب يأَخُذُ بكِتِفَيْهِ ويَهُزُّهُ وهو يقولُ لَهُ:

ـ ثَكَلَتْكَ أُمك وعَدِمَتْكَ يا ابْنَ الخطّاب. . .
اسْتَعْمَلَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ وتأمرُني أَنْ أَنْزعه؟؟. . .
واللَّه لا يكونُ ذلك. . .

ولدى عودةِ عمر نحوَ المسلمينَ سأَلوهُ عمّا فعلَ فقال لهُم غاضِباً:

ـ «ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهاتكُم. . .
فقد لقَيتُ ما لقيتُ من خليفةِ رسولِ اللَّه. . .

وبلغَ أُسامةَ أَمْرُ وفاةِ حبيبه وقائِده ومُرْشِدِه ومُلْهِمِه ونبيِّهِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ عليهِ الصلاةُ والسلام. فحَزِنَ حُزْناً لا يُوصَف، وكتبَ إلى أَبي بكرٍ يقول:

«إِنَّه قد حدَثَ أَعْظَمُ الحدَث. . .

وما أَرى العربَ إِلا ستكفُرُ ومعي وجوهُ أَصحابِ رسولِ اللَّه ﷺ. فإِنْ رأَيْتَ أَنْ نُقيم».

فكتبَ إِليهِ أَبو بكرٍ فقالَ:

«ما كنتُ لأَسْتَفْتِحَ بشيءٍ أَول من ردّ أَمرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. . ولأَنْ تَخَطَّفَنِي الطيرُ أَحَبُّ إِليَّ من ذلك.

ولكنْ إنْ رأيْتَ أن تأذَنَ لعُمَر. فأذَنْ لَهُ».

بمثلِ تلكَ القِيَمِ سادَ الإسلامُ.

فخليفة رسولِ اللّهِ ﷺ يَسْتَأْذِنُ قائِدَ الجيش المُتَوَجِّهِ لمحاربةِ الرومِ في فلسطين ليطأَ بِنَعْلَيْهِ تخومَ «البلــقاء» أنْ يسمحَ لعمر بنِ الخطّاب بـالبقـاءِ إلى جانبِهِ.

وأَذِنَ أُسـامةُ لعمـر بالبَقـاءِ إلى جـانِب أَبي بكـرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ ليُعاوِنَهُ في أُمورِ المسلمين.

ومضَى في مهمَّتِـهِ المقدَّسَـةِ، وعادَ إلى المـدينةِ المنوَّرةِ سالماً غانماً وقيلَ في ذلكَ الجيش:

«إنَّه ما رُئِيَ جيشٌ أَسْلَمَ وأَغْنَمَ من جيشِ أُسامةَ ابنِ زيد».

٧ ـ الدَّرْسُ القاسي

واستمـرَّ أُسامـةُ ذلكَ البـطل المظفَّـر والمجاهـد المندفع في جميع جبَهاتِ الفتحِ والقتال.

وبَقِيَ ذلِكَ المسلم المتواضع الذي يُقاتِلُ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ أميراً على الجيش أو تَحْتَ إِمْرَةِ سِواه. فلمْ يَكُنْ هدَفُهُ السُّلْطَةَ والإمارة بقَدْرِ ما كانَ العملَ عَلى نَشْرِ كلمةِ اللَّهِ العُلْيا وتثبيتِ رسالةِ الإِسْلام.

وبعد مقتلِ عثمان بنِ عفان رَضِيَ اللَّهُ عنهُ، انْقَسَم المسلمونَ إلى فئَتينِ متصارعَتَيْنِ متقاتِلَتَيْن.

فئة بايَعَت الإمامَ عليَّ بن أبي طالِب كرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وقاتَلَتْ تَحْتَ لوائِه.

وفئة بَايَعَتْ معاويةَ بنَ أبي سفيان والي الشامِ آنذاك وقاتلَتْ تحْتَ لوائِه.

ومع أَنَّ البيعةَ الحقيقيَّةَ كانَتْ للإمامِ علي، فإنَّ أُسامَة بنَ زيدٍ رَفَضَ أَنْ يقاتِلَ تحتَ لوائِهِ كما رَفَضَ أَنْ يُبايِعَهُ وَبَقِيَ على الحيادِ وشعارُه:

«لا يُشْهَرُ سيفي في وجه مُسْلمٍ شَهِدَ أَنْ لا إِلَه إلّا اللَّه..».

وأتاهُ عليُّ بنُ أبي طالب يُعاتِبُه ويَطْلُبُ منهُ

الانضمامَ إليهِ. فرفَضَ بعزْمٍ وتصميمٍ وقـالَ لَهُ يُـذَكِّرُهُ بكلامٍ سمِعَهُ من رسولِ اللَّهِ ﷺ بحضورهِ:

«لـو أَدْخَلْتَ يَـدَكَ في فمِ تِنّينٍ لأَدْخَلْتُ يَـدي معَها.

ولكنَّكَ سمِعْتَ ما قـالَهُ لي رسـولُ اللَّه ﷺ حينَ قَتَلْتُ ذلِكَ الرجلَ الذي شهِد أَنْ لا إِلَه إلّا اللّه».

ولذلكَ الموقِف قصةٌ حصلَتْ مع أُسامة وكانَتْ لَهُ دَرْساً قاسِياً تَعَلَّمَهُ مِنَ الرسولِ الكريم.

فَقَبْلَ وفاةِ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسـلامُ بسنتَيْن بَعَثَ أُسامةَ على رأْسِ سريَّةٍ لقتالِ بعضِ العربِ الذينَ كانوا ما زالوا يُحاربون المسلمينَ ويسيئـونَ إِلَيْهم.

وكانَتْ تلكَ أَولَ إمارةٍ لأُسامة وهـو على مشارفِ سِنِّ الثامِنَة عشرة.

وحقَّقَ أُسامةُ النَّصْرَ المطلوب. وعادَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ بعدَ أَنْ سبقَتْهُ أَنباءُ نَصْرِه وفَوْزِه.

وَلْنَـدع أُسامـةَ يَرْوي لنـا تفاصيـلَ ذلكَ الـدَّرْسِ

العظيمِ والقاسي في آن. فقال:

«... فأَتيت النبيَّ ﷺ وقد أَتاهُ البشيرُ بالفتحِ. فإذا هوَ متهلِّلٌ وجهُهُ. فأَدْناني منهُ ثمَّ قالَ:

- حَدّثْني...

فجَعَلْتُ أُحدِّثُه وذكَرْتُ لَهُ أَنَّهُ لما انْهَزَمَ القومُ أَدْرَكْتُ رجلاً وهو كافِر. وكانَ قد قَتَلَ من المسلمينَ في غزاةٍ لهُم. فأَقْبَلْتُ عليهِ أَنا ورجلٌ من الأَنصارِ فلمّا شَهَرْنا عليهِ السِّلاحَ قال:

- أَشْهَدُ أَنْ لا إلَه إلاّ اللَّه وأَنَّ محمداً رسولُ اللَّه.

فَلَمْ نَبْرَحْ عنهُ حتى قَتَلْنَاهُ.

فتغيَّرَ وجْهُ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقال:

- يا أُسامة...

من لكَ بلا إلَه إلاّ اللَّه...

فقلت:

- يا رسولَ اللَّه...

إنّما قالَها تعوذاً[1] مِنَ القتلِ.

---

(١) تعوذاً: احتماءً.

فقالَ:

ـ يا أُسامة. . . .

من لكَ بلا إلَه إلّا اللَّه. .

فـوالذي بعثَـهُ بالحقِّ مـا زالَ يـردِّدُهـا عليَّ حتى وددْتُ أنَّ مـا مضى من إسْـلامي لم يكُـنْ بي وأنّـي أسلَمْتُ يومئِذٍ فقلتُ:

ـ أُعطي اللَّهَ عَهْداً أنْ لا أقْتُلَ رجلاً يقولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَه إلّا اللَّه وأنَّ محمداً رسولُ اللَّه».

٨ ـ وفاتُه

وانْسحَب أُسـامةُ ليعيشَ في وحـدَتِهِ وتـأمُّـلاتِـه. يراقِبُ تَقاتُـلَ المسلمينَ ويتألَّمُ لحـالِهِم وللواقعِ الـذي صاروا إليه.

وفي السنةِ الخامسةِ والخمسينَ للهجرة توفِّي وقد خلَّفَ وراءَهُ ذِكْرى عظيمةً وصيتاً عطراً.

رَحِمَ اللَّهُ أُسامةَ بنَ زيد. . الحبَّ ابنَ الحبِّ. . . البطلَ المجاهِـدَ والمُسْلِمَ المخلصَ والمؤمِنَ الطاهـر. فلقد كانَ عموداً من أعمدةِ الصَّرْحِ الإسلاميِّ العظيم.

المصادر والمراجع

١ ـ السيرة النبوية	ابن هشام
٢ ـ صحيح البخاري	البخاري
٣ ـ البداية والنهاية	ابن كثير
٤ ـ اسد الغابة	ابن الأثير
٥ ـ الاصابة	العسقلاني
٦ ـ رجال حول الرسول	خالد محمد خالد
٧ ـ معرفة الصحابة	الاصبهاني
٨ ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة	محمد حميد الله
٩ ـ الطبقات الكبرى	ابن سعد

الفهرس

سلسلة أعمدة الإسلام

١ ـ أبو بكر الصدِّيق .
٢ ـ عمر بن الخطّاب .
٣ ـ عثمان بن عفّان .
٤ ـ عليّ بن أبي طالب .
٥ ـ عمر بن عبد العزيز .
٦ ـ سعد بن أبي وقّاص .
٧ ـ طلحة بن عبيد الله .
٨ ـ الزبير بن العوّام .
٩ ـ أبو عبيدة عامر بن الجرّاح .
١٠ ـ عبد الرحمن بن عوف .
١١ ـ سعيد بن زيد .
١٢ ـ حمزة بن عبد المطلب .
١٣ ـ زيد بن حارثة .
١٤ ـ سالم مولى أبي حذيفة .
١٥ ـ عبد الله بن جحش .
١٦ ـ عتبة بن غزوان .
١٧ ـ عبد الله بن مسعود .
١٨ ـ المقداد بن عمرو .
١٩ ـ خبّاب بن الأرتّ .
٢٠ ـ صهيب بن سنان الرومي .
٢١ ـ بلال بن رباح الحبشي .
٢٢ ـ عمار بن ياسر .
٢٣ ـ زيد بن الخطّاب .
٢٤ ـ عثمان بن مظعون .
٢٥ ـ أبو سبرة بن أبي رهم الأسلمي .
٢٦ ـ سعد بن معاذ .
٢٧ ـ عبّاد بن بشر .
٢٨ ـ محمد بن مسلمة .
٢٩ ـ عاصم بن ثابت .
٣٠ ـ خالد بن زيد .
٣١ ـ أُبي بن كعب .
٣٢ ـ عبد الله بن رواحة .
٣٣ ـ بشير بن سعد .
٣٤ ـ عبادة بن الصامت .
٣٥ ـ معاذ بن جبل .
٣٦ ـ أُسيد بن حضير .
٣٧ ـ العباس بن عبد المطلب .
٣٨ ـ جعفر بن أبي طالب .
٣٩ ـ أبو سفيان بن الحارث .
٤٠ ـ أسامة بن زيد .
٤١ ـ سلمان الفارسي .
٤٢ ـ خالد بن سعيد بن العاص .
٤٣ ـ أبو موسى الأشعري .
٤٤ ـ شرحبيل ابن حسنة .
٤٥ ـ عبد الله بن عمر بن الخطّاب .
٤٦ ـ عبد الله بن حذافة .
٤٧ ـ عمير بن وهب الجمحي .
٤٨ ـ أبو ذرّ الغفاري .
٤٩ ـ الطفيل بن عمرو .
٥٠ ـ خالد بنُ الوليد .
٥١ ـ عمرو بن العاص .
٥٢ ـ سعيد بن عامر الجمحي .
٥٣ ـ نعيم بن مسعود .
٥٤ ـ المغيرة بن شعبة .
٥٥ ـ سلمةَ بن الأكوع .
٥٦ ـ أبو هريرةَ الدوسي .
٥٧ ـ حذيفة بن اليمان .
٥٨ ـ البراء بن مالك .
٥٩ ـ عبد الله بن سلام .
٦٠ ـ سماك بن خرشة .
٦١ ـ عياض بن غَنْم .
٦٢ ـ عمرو بن الجموح .
٦٣ ـ عمير بن سعد .
٦٤ ـ غالب بن عبد الله .
٦٥ ـ فرات بن حيّان .
٦٦ ـ القعقاع بن عمرو .
٦٧ ـ يزيد بن أبي سفيان .
٦٨ ـ عكرمة بن أبي جهل .
٦٩ ـ حكيم بن حزام .
٧٠ ـ خُبيب بن عديّ .
٧١ ـ الربيع بن زياد .
٧٢ ـ سراقة بن مالك .
٧٣ ـ عبد الله بن الزبير .
٧٤ ـ أبو العاص بن الربيع .
٧٥ ـ زيد بن سهل .
٧٦ ـ عبد الرحمن بن أبي بكر .
٧٧ ـ مصعب بن عمير .
٧٨ ـ عبد الله بن العباس .
٧٩ ـ عديّ بن حاتم .
٨٠ ـ زيد بن ثابت الأنصاري .
٨١ ـ حبيب بن زيد .
٨٢ ـ ثمامة بن أثال .
٨٣ ـ ثابت بن قيس .
٨٤ ـ أنس بن مالك .
٨٥ ـ سهيل بن عمرو .
٨٦ ـ ضرار بن الأزور .
٨٧ ـ عبد الله بن عمرو بن حرام
٨٨ ـ عمرو بن معديكرب .
٨٩ ـ المثنّى بن حارثة .
٩٠ ـ النعمان بن مقرّن .
٩١ ـ عويمر بن مالك (أبو الدر
٩٢ ـ جرير بن عبد الله البجلي
٩٣ ـ سعد بن عُبادة .
٩٤ ـ مجزأة بن ثور .
٩٥ ـ الأقرع بن حابس .